العمل الميدانى

مناهجه وقضاياه

١ - توطئة

تتألف عملية البحث في مجال المأثور الشعبي من ثلاث مراحل متتالية ، هى : مرحلة جمع المادة من مصادرها الشفهية (والتحريرية) ، تليها مرحلة تصنيف ما تم جمعه وفهرسته وإيداعه في أرشيف ، ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الأخيرة وهي مرحلة الدراسة والتحليل . فمرحلة الجمع هي المرحلة الأولى والأساسية التي تحتل مكان الصدارة والتي ترتكز عليها المرحلتان التاليتان ، لذا ينبغي تنفيذها وفق خطة بحث مدروسة وحسب منهج علمي دقيق حتى نضمن سلامة النتائج . إلا أن الكتب التي تتناول العمل الميداني في مجال الفلكلور نادرة جداً أو شبه معدومة لا في اللغة العربية فحسب بل في جميع اللغات . ويرجع السبب في إحجام علماء الفلكلور عن طرق هذا الميدان إلى أن غالبيتهم يشعرون بأن العمل الميداني موهبة تولد مع الإنسان وفن تصقله التجربة والمراس قبل أن يكون علماً يكتسب عن طريق القراءة وفي صالات التدريس ، ولايزال علم الفلكلور يعاني نقصاً واضحاً في هذا الصدد لقلة المؤلفات التي توضح أساليب الجمع وتنظم خطوات العمل وتحدد مناهج البحث . والكثير من الفلكلوريين يلجؤون إلى مؤلفات الأنثروبولوجيين ليستعينوا بها في عملهم الميداني لما بين هذين العلمين من قرابة وترابط[١] .

ولو استعرضنا المؤلفات التي كتبت لتكون مقدمات أو مداخل إلى علم الفلكلور لوجدنا الكثير منها لايتطرق إلى العمل الميداني بتاتاً ، والتي تتطرق له تفعل ذلك في صفحات قليلة جداً . مثلاً نجد أن الكتاب الذي ألفه جورج لورنس جوم George Laurence Gomme وعنوانه **The Handbook of Folklore** يتكلم عن العمل الميداني فيما لايزيد عن ست صفحات[٢] . ويزداد عدد الصفحات من ست إلى أربع عشرة صفحة حينما أعادت شارلوت صوفيا بيرن Charlotte Sophia Burne طبع الكتاب بعد تنقيحه بتكليف من جمعية الفلكلور البريطانية[٣] . أما في الكتاب الضخم الذي ألفه سيان أو سلبان Sean O Suilleabhain عن الفلكلور الايرلندي بعنوان **A Handbook of Irish Folklore** فلا يزيد عدد الصفحات

التي تتناول العمل الميداني عن ثلاث صفحات[٤] . ويخصص كينيث وماري كلارك Kenneth and Mary Clarke في كتابهما **Introducing Folklore** حوالي خمس صفحات للعمل الميداني[٥] . ولا يخصص جان هارولدبرونفاد Jan Harold Brunvand لهذا الموضوع إلا أقل من أربع صفحات في كتابه **The Study of American Folklore** [٦] علماً بأنه من أحدث الكتب المدرسية التي تتحدث عن الفلكلور وأوسعها انتشاراً في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية .

وهكذا نجد أن مثل هذه الكتب التعليمية لا تفيد كثيراً في التعريف بخطوات العمل الميداني ، وأساليب جمع مواد المأثور الشعبي . وأحسن منها تلك الكتب التي يدون فيها أصحابها ما جمعوه في الميدان من مواد شعبية إذ غالباً ما يناقشون ، ولو بصورة عابرة ، العقبات التي اعترضت طريقهم في الجمع وكيف تم التغلب عليها . وقد يعقد بعضهم فصلاً كاملاً يتحدث فيه عن العمل الميداني . ويعد ريتشارد دورسون Richard M. Dorson من أنشط جامعي الفلكلور في الولايات المتحدة الأمريكية ولايخلو كتاب من كتبه العديدة من نظرات ثاقبة وملاحظات قيّمة عن العمل الميداني . ويخصص فصلاً كاملاً في كتابه **Buying the Wind** للحديث عن أساليب الجمع الميداني[٧] . وتتحدث إميلين جاردنر Emelyn E. Gardner في كتابها **Folklore From The Schohaire Hills** عن تجربتها في الميدان وكيف استطاعت أن تقضي على الشكوك التي أثارها عامة الناس حولها وحول عملها[٨] . كما يتحدث جان لوماكس John Lomax في كتابه **Adventures of a Ballad Hunter** عن مغامراته في الميدان وعما لقيه من نجاح أحياناً ومن إخفاق أحياناً أخرى[٩] .

وهناك عدة مقالات كتبت عن جمع الفلكلور[١٠] ، لكن ما يمكن الركون إليه منها في وضع خطة منهجية شاملة للجمع الميداني لايتعدى أصابع اليد الواحدة . فبعضها لا يتحدث عن أساليب الجمع الميداني ولكن عما تم جمعه في الميدان ، وبعضها ينحصر اهتمامه في حيز ضيق جداً من المأثور الشعبي كالأمثال أو الأحاجي أو ما شابهها . ومن أحسن ما كتب في هذا الموضوع مقالة ماك ادوارد ليتش Mac Edward Leach وعنوانها "Problems of Collecting Oral Literature" التي حث فيها الجامعين ألا يقتصروا على تدوين نصوص الأدب الشعبي ، وأوصاهم أن يأخذوا بعين الاعتبار المحيط الحضاري والسياق الأدائي وشخصيات

المؤدين ومواقفهم تجاه ما يحملونه من مأثورات شعبية وذلك من أجل التوصل إلى القيم الفنية والجمالية للأدب الشعبي[١١] . هـذا وقد أسهم دونـالد مـاكدونـالد Donald A. Macdonald في كتاب **Folklore and Folklife: An Introduction** الذي حرره ريتشارد دورسون بمقالة وافية تناول فيها بإيجاز أهم خطوات العمل الميداني[١٢] .

والكتب التي يخصصها مؤلفوها لبحث خطوات العمل الميداني وأساليب الجمع في مجال المأثورات الشعبية قليلة جداً ، بل نادرة ، كما ألمحنا سابقاً . وأكثرها رواجاً هـو الكتاب الـذي ألفه كينيث جـولدستين Kenneth S. Goldstein عنـوانـه **A Guide for Field Workers in Folklore** ويقع في ١٩٩ صفحة[١٣] . وعلى الرغم من مضي عشرين سنة على تأليف هذا الكتاب وعلى الرغم من أنه يفتقد الكثير من مقومات العمل العلمي الرصين فإنه لايزال يحظى باهتمام الباحثين .

وهناك كتاب آخر قلما يرد ذكره على ألسنة الفلكلوريين وقلما يرد فى كتاباتهم إلا أنـه لا يقل في قيمتـه العلمية عن كتـاب جولـد ستين ، بـل إنه يفـوقه في بعض الجـوانب . ذلكم هـو **The Tape-Recorded Interview** لمؤلفـه ادوارد آيفـز Edward D. Ives[١٤] . يبدأ آيفز بالكلام عن آلة التسجيل وطريقة عملها ويقارن بين تسجيل الكاسيت Cassette وتسجيل البكرة Reel ويوضح بعض المشاكل الميكانيكية التي تعترض الجامع في أثناء عملية التسجيل في الميـدان ويقترح بعض الحلول لها . ثم ينتقل بعد ذلك ، خطوة خطوة ، إلى العمل الميداني وعلاقة الباحث مع الإخباريين وطرق التعـامل معهم . ويتحـدث الجزء الأخـير من الكتاب عن فهرست المادة المسجلة وتفريغها وإيداعها في الأرشيف الصوتي .

ومن أوائل الفلكلوريين العرب الذين نبهوا لأهمية العمل الميداني وجمع المأثور الشعبي صفوت كمال في مقالته « جمع العناصر الشعبية » التي نشرها عام ١٩٦٨ م في مجلة ***الفنون الشعبية*** [١٥] .

وانطلاقاً من هذه المقالة ألف الطيب محمد الطيب ومصطفى مبارك مصطفى ومحمد عمر بشاره كتابهم ***دليل الباحث السوداني لجمع الفلكلور*** الذي ظهر سنة ١٩٧٣ م[١٦] . ومن المؤسف أن هذا الدليل يفتقر إلى الحد الأدنى من متطلبات التأليف العلمي . ولايتسع المقام هنا لحصر أخطاء اللغة والأسلوب والترجمة وتهجئة

الكلمات الأجنبية وأخطاء التوثيق الببليوغرافي التي يقع فيها المؤلفون . وفي عدة مواضع من الدليل ينتشل المؤلفون مقتطفات بالحرف الواحد من مقالة صفوت كمال الآنفة الذكر دون ذكر اسم الكاتب أو عنوان المقالة ، عدا إشارة عابرة في مقدمة الدليل ، أما المحاولة التي يدعي المؤلفون أنهم بذلوها في توطين الدليل ليتمشى مع متطلبات الجمع الميداني في السودان فإنها محاولة فجة لا يعتد بها . وبوجه عام ، فإن هذا الدليل لا يليق بهذا الفريق من الباحثين المختصين .

وفى سنة ١٩٧٠ م ألف محمد محمود الجوهري وعلياء شكري وعبدالحميد حواس دليلاً للعمل الميداني (سنتكلم عنه بعد قليل) ليسترشد به جامعو المأثورات الشعبية وقدموا له بمقدمة وافية تحدثوا فيها عن طبيعة العمل الميداني والطرق المتبعة في جمع المأثور الشعبي[١٧] . كما خصص الجوهري الفصل الرابع عشر من كتابه ***علم الفلكلور*** (الجزء الأول) للحديث عن العمل الميداني[١٨] ويتضمن هذا الفصل اقتباسات مطولة من الدليل المشار إليه آنفاً . ومما يؤخذ على الجوهري وزملائه طغيان المنهج الأنثروبولوجي على كتاباتهم في مجال الفلكلور . فمعظم المصادر التي عولوا عليها مصادر أنثروبولوجية والكثير من القضايا التي طرحوها أقرب إلى العمل الأنثروبولوجي منها إلى العمل الفلكلوري . ولاشك أن هناك علاقة وطيدة بين الأنثروبولوجيا والفلكلور كما سبقت الإشارة إليه ، ولكنهما على الرغم من ذلك يظلان مجالين متميزين من مجالات الدراسة والبحث العلمي ، لكل منهما نظرياته الخاصة ومناهجه المحددة . لذا ينبغي أن نحترس من الخلط بين المفاهيم وأساليب العمل المتبعة في هذين المجالين المختلفين .

وأكثر تمشياً مع مناهج البحث المعمول بها لدى الفلكلوريين ما ذكره أحمد علي مرسي في كتابه ***مقدمة في الفلكلور*** فبالإضافة إلى الملاحظات القيمة المتناثرة في ثنايا الكتاب يخصص مرسي فصلاً كاملاً يتناول فيه أساليب جمع الأدب الشعبي[١٩] . وينم عرض المؤلف في هذا الفصل لأساليب الجمع الميداني عن خبرته في هذا المجال وصلته المباشرة بحملة المأثور الشعبي من إخباريين ومؤدين . ولقد فصل القول في بعض القضايا وعالجها بشكل جيد ، مثل : قضية جمع جميع الروايات المختلفة للنص الأدبي . إلا أن هناك قضايا أخرى مهمة أغفل الحديث عنها أو مر عليها مرور الكرام ؛ مثل : طرق الملاحظة والمقابلة واستدراج الإخباري للإدلاء بما تختزنه ذاكرته من مأثورات شعبية . ولكن ما كتبه مرسي عن العمل

الميداني ينطبق عليه ما ينطبق على كتابه بشكل عام من حيث سوء الإخراج والطباعة الحافلة بالأخطاء وضعف الأسلوب وعدم الدقة وعدم التركيز في عرض الأفكار والتفاوت الواضح في المستوى بين أجزاء الكتاب . وهذه الأحكام تنطبق ، مع الأسف ، على جميع الأعمال العربية التي تطرقنا لها في الفقرات السابقة .

وهذا الكتيب الذي بين يدي القارىء يهدف إلى مواكبة مستجدات البحث الفلكلوري وسوف أحاول من خلاله سد الثغرات واستكمال بعض أوجه النقص التي تعاني منها المكتبة العربية فيما يتعلق بالبحث الميداني في مجال المأثورات الشعبية . وأود أن أؤكد هنا أن خبرتي في مجال العمل الميداني لا تقتصر على قراءة ما كتب في هذا الموضوع فحسب ، بل تتعدى ذلك إلى التجربة العملية والممارسة الفعلية . فبالإضافة إلى الاشراف على الأعمال الميدانية المتواضعة التي أكلف طلابي بإعدادها أقوم حاليا بتنفيذ مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية الذي يموله مركز البحوث بكلية الآداب في جامعة الملك سعود[٢٠] . ومنذ أن تمت الموافقة على المشروع من قبل المجلس العلمي بالجامعة في ربيع الأول ١٤٠٣ هـ قمت بتسجيل مائتي ساعة من الحوار مع ما لايقل عن ستين راوية من رواة الشعر والقصص في بادية الجزيرة العربية ، ولايزال العمل مستمراً . وقد أتاح لي هذا المشروع ممارسة العمل الميداني المكثف ، والاتصال المباشر مع حملة المأثور الشعبي ، والتعرف على مشاكل العمل الميداني وكيفية التعامل معها . وقبل الذهاب إلى الميدان كنت قد قرأت كل ما وقعت عليه يدي من كتابات تتحدث عن العمل الميداني ، واستفدت كثيراً من خبرات الآخرين في هذا المجال .

ومن المعروف أن عملية الجمع الميداني تختلف في حجمها وطريقة الإعداد لها باختلاف هدف الباحث وإمكاناته . وقبل أن نبدأ بالحديث عن العمل الميداني المكثف الذي يتطلب الإعداد له الكثير من الوقت والجهد والمال والخبرة العلمية نلقي نظرة عاجلة على بعض الأعمال الميدانية المحدودة في أهدافها وفي إمكاناتها المادية والفنية .

٢ - الأعمال الميدانية المحددة

٢ر١ - الجهود الفردية :

نقصد بذلك أن أي فرد بإمكانه مثلاً أن يعمل ملفاً خاصاً يجمع فيه كل مايقع عليه سمعه وبصره من مواد شعبية تستحق الجمع والتسجيل ، فيتخذ من محيطه الاجتماعي المباشر ميداناً للبحث والتنقيب بدلاً من أن يتجشم الصعاب ويشد الرحال إلى مناطق نائية في الريف أو البادية . وفي مثل هذه الحالة يستعين الجامع بأقاربه ومعارفه وأصدقائه والناس المحيطين به وزملائه في العمل ليمدوه بما لديهم من مأثورات شعبية . كما أن الجامع نفسه يحاول دائماً أن يتذكر مايعرفه من مواد شعبية فيدونها ويضيفها إلى الملف . وهذا بدون شك عمل مشروع ومفيد علمياً ولا يكلف الكثير من الوقت والجهد والمال إلا أنه يحتاج إلى قدر كبير من المثابرة والمواظبة ، وشيء من الإلحاح في الطلب بحيث لايدع الجامع صغيرة ولاكبيرة تفوته دون أن يسجلها في الحال ، فلا يعتمد على ذاكرته ويقول مثلاً : « سأحتفظ بها في الذاكرة وأدونها في أقرب فرصة » . ومن المستحسن أن يحمل الجامع معه دائماً كراسة صغيرة وقلماً لهذا الغرض . وقد تمر السنوات الطويلة قبل أن يتجمع لدى الباحث المادة الكافية للنشر . ومع الأسف أن الكثيرين ممن يتبعون هذه الطريقة في الجمع يفقدون حماسهم بعد مضي بضعة أشهر ويتخلون عن متابعة الجمع .

ولو ألقينا نظرة عابرة إلى ما تم جمعه ونشره في البلاد العربية من كتب المأثور الشعبي لوجدناها في الغالب تنطلق من هذا المنهج ، أي أنها تعتمد على الجهود الفردية . وهذا دليل واضح على جدوى العمل الفردي وفعاليته إلا أنه يظل محدوداً إذا ما قيس بسبل الجمع الأخرى .

٢ر٢ ـ دليل العمل الميداني :

وهناك طريقة أخرى لجمع المأثورات الشعبية وهي طريقة الاستبيان Questionaire التي كان معمولاً بها في أوربا منذ القرن التاسع عشر[٢١] . والاستبيان ، كما هو معروف ، عبارة عن أسئلة محددة تتعلق بموضوع معين يبعث به الباحث إلى جهات متعددة للإجابة عليها وإعادتها إليه . وشيئاً فشيئاً تطورت فكرة الاستبيان وتحولت إلى دليل موسع وشامل يتطرق إلى جميع نواحي الحياة الشعبية ، ويطبع على شكل كتاب يكون في متناول الهواة والمهتمين بجمع المأثورات الشعبية .

ومن أشهر وأقدم الكتب الإنجليزية التي استخدمت لهذا الغرض دليل أسهم في إعداده لجنة من المعهد الملكي للدراسات الأنثروبولوجية في بريطانيا العظمى وإيرلندا The Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland وعنوان الدليل **Notes and Queeries in Anthropology** ونشر لأول مرة عام ١٨٧٤ ثم تتالت طبعاته بعد ذلك[٢٢] . وفي عام ١٨٨٧ أوصى مجلس جمعية الفلكلور البريطانية (التي كانت قد تأسست عام ١٨٧٧) بنشر دليل كان قد أعده جورج لورنس جوم George Laurence Gomme (وهو أحد أعضاء المجلس) خصيصاً للعمل الميداني في مجال المأثورات الشعبية . وتم نشر هذا الدليل عام ١٨٩٠ تحت عنوان **The Handbook of Folklore** كما سبقت الإشارة إليه[٢٣] . وأعيد نشر هذا الدليل عام ١٩١٤ بنفس العنوان ولكن تحت اسم شارلت صوفيا بيرن Charlotte Sophia Burne[٢٤] التي قامت بإيعاز من جمعية الفلكلور البريطانية بإعادة صياغة الدليل وتزويده بالكثير من المواد الجديدة . وفي عام ١٩٢٩ قام إيوروورث بيت Iorwerth C. Peate بنشر دليل لجمع المأثورات الشعبية في ويلز وعنوانه **Guide to The Collection of Welsh Bygones**[٢٥] .

وإضافة إلى جهود العلماء في بريطانيا فقد ساهم علماء الفلكلور في السويد مساهمة فعالة في ضبط وتنظيم عملية جمع وتصنيف المأثورات الشعبية[٢٦] . ففي

سنة ١٩٣٤ قام كل من أيكي كامبل Aake Campell وهيرمان جاير Herman Geijer وسفن ليليبلاد Sven Liljeblad بتصميم فهرس موضوعي شامل لجميع مواد الفلكلور السويدي التي يضمها أرشيف معهد البحوث الفلكلورية واللهجات في أوبسالا Landsmaalsarkiv (Dialect and Folklore Archive) ولقد كان هذا المخطط من الدقة والشمول بحيث عول عليه سيان أو سلبان Sean O Suil-leabhain من جمعية الفلكلور الايرلندية The Irish Folklore Commission حينما ألف دليل جمع المأثورات الشعبية في إيرلندا الذي نشره عام ١٩٤٢ بعنوان **A Handbook of Irish Folklore**(٢٧) . ويعتبر دليل أوسلبان من أحسن ما ألف في هذا المجال .

وفي العالم العربي قام محمد محمود الجوهري وعلياء شكري وعبدالحميد حواس كما سبق أن ألمحنا ، بعمل دليل خاص يجمع المأثورات الشعبية في مصر والعالم العربي . وصدر الجزء الأول من هذا الدليل عام ١٩٧٠ م تحت عنوان ***الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية*** (٢٨) . ولقد استعان الجوهري وزملاؤه في تصميم دليلهم بخبرات العلماء الأوربيين إلا أنهم حاولوا أن يكون عملهم متمشياً مع طبيعة الثقافة الشعبية في مصر .

ويراعى في تصميم دليل العمل الميداني أن تكون هناك خطة حصر مفصلة ومنظمة تشمل جميع مواد المأثور الشعبي ومظاهر الحياة الشعبية وتحيط بجميع جوانبها المادية والروحية والمعنوية . ويقسم الدليل إلى عدة أبواب يمثل كل منها جانباً رئيساً مستقلاً من جوانب الحياة الشعبية . وتتفرع الأبواب إلى مواضيع ، والمواضيع تتجزأ إلى عناصر ، وهكذا على نسق يشبه إلى حد ما تقسيم الكتب فى المكتبة على حسب فروع المعرفة الإنسانية ، والغرض من هذا التقسيم لايقتصر فقط على تهذيب أساليب الجمع الميداني بل يتضمن أيضاً رسم مخطط شامل لفهرست المواد المجموعة وتصنيفها وإيداعها في الأرشيف بطريقة علمية دقيقة منظمة تضمن بقاءها وتيسر سبل استرجاعها لاستعمالها والاستفادة منها من قبل الباحثين . وهنالك علاقة وطيدة وتفاعل مستمر بين عملية الجمع وعملية الحصر إذ أن كلاً منهما قائمة على الأخرى . فعملية الحصر ليست إلا محاولة دائبة لتنظيم وتنسيق المواد المجموعة ، كما أن عملية الجمع تهدف إلى سد الثغرات وملء الفجوات التي تبرز أثناء الحصر .

وفكرة إعداد دليل للعمل الميداني تنبثق عادة من هيئة علمية كجامعة أو معهد أو مركز دراسات لديه الإمكانات الكافية لتجنيد فريق من الهواة والمهتمين بجمع المأثورات الشعبية الذين لديهم الرغبة والحماس للعمل الميداني ولكن تنقصهم الخلفية العلمية والخبرة العملية لمزاولة هذا العمل . وتقوم الجهة المختصة بتقديم دورات مكثفة لتدريب هؤلاء الهواة والمهتمين على استعمال الدليل . وبعد ذلك يذهبون إلى الميدان إذا كانوا متفرغين للعمل الميداني ، أو يقومون بعملية الجمع من المناطق التي يعيشون ويعملون بها ، ثم يرسلون مايحصلون عليه من مواد إلى الجهة المختصة التي تتولى فرز هذه المواد وتصنيفها وأرشفتها . وهذه الطريقة ناجحة لجمع المأثورات الشعبية بصورة منظمة هادفة وبشكل موضوعي شامل وعلى نطاق جغرافي واسع ، بالإضافة إلى أنها قليلة التكلفة وتوفر الكثير من الوقت والجهد . إلا أنها على الرغم من ذلك محدودة الفائدة حيث إنها عملية آلية بحتة تنقصها المرونة والتكيف مع الظروف الطارئة . فالأسئلة معدة ومرتبة سلفاً ، والجامع قد لا تكون لديه الكفاءة للتوسع والاستطراد في البحث والاستجواب فيما لو عثر على إخباري فذٍ وظاهرة تستحق دراسة وافية .

٣ر٢ ـ العمل الطلابي :

الكثير من الجامعات والمعاهد العليا في الدول المتقدمة التي يدرّس فيها الفلكلور كمادة أساسية تضم أرشيفات لجمع وتصنيف المأثورات الشعبية . وبالإضافة إلى جهود الباحثين والمختصين من ذوي الخبرات والكفاءات العلمية العالية فإن الطلاب يساهمون بقدر كبير ويشاركون مشاركة فعالة في تزويد هذه الأرشيفات بالمواد الشعبية بمختلف أجناسها . بل إن الكثير من الأرشيفات في المعاهد والجامعات يعتمد اعتماداً أساسياً على جهود الطلاب من حيث جمع مواد المأثور الشعبي ومن حيث تصنيفها وتبويبها ومن ثم إيداعها في مخازن الأرشيف[٢٩] .

مثال على ذلك ، حينما كنت طالباً في جامعة كاليفورنيا (فرع بيركلي) كان ألن دنديز Alan dundes ـ وهو أستاذي والمشرف على دراستي ـ عالماً فاضلاً ومدرساً ناجحاً لذا يقبل الطلاب على مادته ***مدخل إلى علم الفلكلور*** بأعداد كبيرة .

وقد أحسن استغلال هذا الإقبال من أجل تطوير وتعزيز الأرشيف الفلكلوري الذي أسسه منذ عدة سنوات . فكان يكلف كل طالب يسجل في مادته ، كمتطلب أساسي من متطلبات اجتياز المادة ، أن يسجل خمسين مادة من مواد المأثور الشعبي .

وإذا كانت واحدة من أرقى الجامعات في البلدان المتقدمة ترى أن تجنيد الطلاب لجمع المأثور الشعبي عمل شرعي ومفيد فإنه من الأولى أن يستفاد من هذه التجربة في الدول النامية التي تمر بمرحلة تطور جذرية سريعة تهدد بانقراض مأثوراتها وتقاليدها ، والتى تفتقر إلى المختصين والهيئات العلمية التي تعنى بجمع المأثور الشعبي ولم شتاته . ومنذ أن بدأت بتدريس مادة المأثور الشعبي بجامعة الملك سعود قمت بتطبيق هذه الفكرة . ففي بداية الفصل الدراسي أناقش مع الطلاب بعض التعريفات والمفاهيم العامة في علم الفلكلور ، ثم أستعرض معهم أهم النظريات والمناهج الفلكلورية ، وننتقل بعد ذلك إلى أجناس المأثور الشعبي ونتكلم عن كل منها على حدة . وهكذا يتسنى للطلاب أن يكوّنوا قاعدة أساسية وخلفية علمية توجهان بحوثهم الميدانية الوجهة النظرية السليمة . ثم نشرع بعد ذلك في الحديث عن أسس العمل الميداني وأساليبه . وفي الوقت نفسه أطلب من كل واحد من الطلاب أن يقدم لي تقريراً عن أحد كتب المأثور الشعبي يقوّم من خلاله جهد المؤلف وأسلوبه في جمع مادة الكتاب . كما أطلب من كل واحد منهم أن يقوم بجمع بعض المأثورات الشعبية ويقدمها لي كتابة لأستعرضها معه وأنبهه إلى أخطائه إن كان قد ارتكب أخطاء في الجمع والتوثيق والتدوين . كما أسمّع الطلاب بعض الأعمال الميدانية المسجلة موضحاً لهم مواطن الضعف فيها ومواطن القوة . والغرض من ذلك هو تدريبهم وتهيئتهم للقيام بالعمل الميداني الذي أكلفهم بالقيام به في نهاية الفصل الدراسي . ففي نهاية الفصل يكلف كل طالب بتسليم شريط كاسيت مسجل لا تقل مدته عن ساعة يتضمن مقابلة يجريها الطالب بنفسه مع أحد حملة المأثور الشعبي . وتحفظ هذه الأشرطة في الأرشيف الصوتي الذي نزمع إنشاءه في قسم الدراسات الاجتماعية بكلية الآداب .

وسوف أتوّسع قليلاً في الحديث عن هذا المشروع بحكم التجربة التي اكتسبتها من تبنيه والعمل فيه ولأنني أعتقد أنه مشروع جدير بالاهتمام من قبل أساتذة المأثور الشعبي في الجامعات العربية . فلابد لنا من تجنيد طلابنا وتسخير طاقاتهم وحماسهم لجمع مأثورنا الشعبي قبل أن يصبح أثراً بعد عين .

لـلاستفادة من المـادة المسجلة على الشـريط استفادة قصـوى لابد أن يكـون التسجيل جيداً والصوت واضحاً . لذلك فإنني ألح على الطلاب أن يستخدموا عند التسجيل بطاريات جديدة وشريطاً جديداً من النوع الجيد وأن تكون آلة التسجيل ذات كفاءة عالية وفي حالة جيدة . كما أطلب منهم أن يجربوا آلة التسجيل ويتعرفوا على كيفية تشغيلها قبل بدء التسجيل الفعلي . وعند نهاية التسجيل يكتب الطالب على الشريط وعلى الصندوق الذي يحفظ فيه الشريط اسمه واسم المادة (= مأثور شعبي) ورقمها ورمزها (= ٣٢١ جمع ، مثلاً) وتاريخ التسجيل ، ويعمل نسخة من الشريط يحتفظ بها لنفسه قبل تسليم الأصل .

وقبل أن يبدأ الطالب في التحدث إلى الإخباري الذي يسجل معه المقابلة عليه أن يورد المعلومات التوثيقية الأساسية أولاً وهي : مكان التسجيل ، تاريخه ، اسم الباحث (= الطالب) ، واسم الإخباري ، محل ميلاده ، موطنه الأصلي ، موطنه الحالي ، عمره ، قبيلته (إن وجد) ، عمله ، عنوانه ، تنقلاته وأسفاره ، درجة التعليم ، وأية معلومات أخرى يراها الباحث ضرورية . ولضمان النتيجة وضمان الحد الأدنى من نجاح المقابلة يطلب من الطالب أن يحدد الإخبـاري الذي يـريد مقابلته ، ونوع المادة التي يريد جمعها قبل أن يذهب إلى الميدان ليبدأ عملية التسجيل الفعلي . ولكن في الوقت نفسه ينبه الطالب إلى أنه ينبغي له ألا يصم أذنيه عما قد يعترض طريقه أثناء العمل الميداني من إخباريين أكفاء ومواد تستحق الجمع . وبعد استكمال البحث مع الإخباري في الموضوع الذي حدده الطالب ، له أن يخوض معه في أي موضوع آخر من مواضيع المأثور الشعبي التي يلم بها الإخباري ويجيد الحديث فيها . كما يجوز للطالب أن يتقابل مع أكثر من إخباري على ألا يزيد العدد عن ثلاثة إخباريين ، أي ما يعادل حوالي نصف ساعة أو عشرين دقيقة مع كل إخباري ، وهذا هو الحد الأدنى من الوقت الذي يسمح للبـاحث أن يتحاور مـع الإخبارى ويتعرف عليه وعلى ماعنده من مواد شعبية .

وينبه الطلاب من البداية إلى أن يبحثوا عن إخباريين أكفاء ومواضيع مناسبة للبحث لأن كفاءة الإخباري وأهمية المادة التي يدلي بها من أهم المسائل التي تدخل فى تقويم العمل الميداني الطلابي . كما يدخل في ذلك أيضاً جودة التسجيل واستيفاء المعلومات الأساسية ، وكذلك أسلوب تعامل الباحث مع الإخباري وطريقة طرح الأسئلة وصياغتها ، ومدى تقيد الباحث بأساليب العمل الميداني السليمة ، والتي

سنتكلم عنها بالتفصيل فيما بعد حينما نتحدث عن العمل الميداني المكثف .

ولاشك أن العمل الطلابي لا يرقى إلى المستوى الرفيع الذي يميز عمل الخبراء والمختصين ، وهناك سلبيات كثيرة قد تحد بعض الشيء من أهميته وإمكانية الاعتماد عليه ، لاسيما إذا وضعنا في الاعتبار الفترة الزمنية القصيرة التي يمضيها الأستاذ مع طلابه لتهيئتهم للعمل الميداني ، والضغوط التي يتعرض لها الطالب من جراء تراكم المواد الدراسية والامتحانات قد لا تمكنه من القيام بهذا العمل الميداني على الوجه المطلوب . كما أنه ليس بإمكان كل طالب أن يقدر أهمية العمل الميداني ويستوعب الأسس العلمية السليمة لتنفيذه ويجدّ في إنجازه .

ومن الأخطاء الفادحة التي يقع فيها بعض الطلاب الطابع الرسمي الذي يضفونه على المقابلة . فبعضهم يعد الأسئلة مسبقاً ويلقيها على الإخباري باللغة العربية الفصحى وبطريقة آلية مما يفقد المقابلة حيويتها وعفويتها وحرارتها وتصبح كأنها استجواب . ومن الطلاب من يخطىء في فهم المقابلة فبدلاً من أن يبحث عن إخباري أمي من عامة الناس نجده يجري المقابلة مع أحد الجامعيين الهواة أو مع شخص متعلم ليس لديه حصيلة شعبية سوى أنه من أولئك الذين يحاولون تبرير المأثورات الشعبية وتفسيرها ، أو أولئك الذين يهمهم أن يقنعوا الآخرين بأن المأثورات الشعبية « قد اندثرت وزالت من بلدنا ولله الحمد وأصبحنا بلداً متقدماً » . ونتيجة مثل هذه المقابلات غالبا ما تكون ضئيلة وضحلة يغلب عليها طابع التحليل السطحي ، وتفتقر إلى الحصيلة الشعبية الإخبارية التي يمكن الاستفادة منها .

والكثيرون ممن لم يتمرسوا في العمل الميداني تزعجهم لحظات الصمت ويحسون بأن الإخباري لابد أن يستمر في الحديث بدون أي انقطاع أو توقف . لذلك نجد بعض الطلاب يسارعون بمجرد أن يتوقف الإخباري ليلتقط أنفاسه ، أو ليستجمع أفكاره ، إلى مقاطعته أو سؤاله عن شيء لا علاقة له بموضوع الحديث ، أو القفز من موضوع الحديث إلى موضوع آخر ، مما يربك الإخباري ويشوش أفكاره . ومن الطلاب من يحرج الإخباري بالإلحاح عليه أن يجيب عن أسئلة شخصية وخاصة . وبعض الأسئلة غير مركزة أو غير هادفة أو لا يراعى فيها المستوى الفكري والتعليمي للإخباري وقد يكون الإخباري غير مؤهل للإجابة عليها . وهناك نوع من الطلاب يحاول أن يثبت حضوره أمام الإخباري بطريقة خاطئة فيسأل عن أمور واضحة وتافهة بينما هناك أشياء مهمة في كلام الإخباري تفوته دون أن يستفسر عنها . وهناك نوع

آخر من الطلاب يتسم أسلوبه بالفظاظة وعدم اللباقة فلا يراعي شعور الإخباري ، ويتخذ موقف الواعظ والمرشد ، خصوصاً إذا كان الموضوع يتعلق بالخرافات والمعتقدات الشعبية ومسائل التحليل والتحريم . وقد تتحول المقابلة إلى مشادة كلامية بينه وبين الإخباري . وهناك فئة من الطلاب يجرون المقابلة مع الخدم والسواقين والناس البسطاء ، ويتعاملون معهم بشيء من الاستعلاء والغطرسة فتصبح الأسئلة كأنها أوامر ، والاستفسارات كأنها اعتراضات ؛ ولاشك أن مثل هذا السلوك يخدش كرامة الإخباري ويسيء إلى المقابلة . فمن بديهيات العمل الميداني أنه مهما كان الفارق الاجتماعي أو التعليمي أو المادي بين الباحث والإخباري فإنه لابد أن يكون بينهما قسط من المجاملة وقدر من الاحترام ، وهذا ما سوف نفصل القول فيه فيما بعد .

ولكن هناك من الطلاب من لديه القدرة على الانسجام مع الإخباريين واستدراجهم إلى الحديث عن طريق التشجيع وحسن الإصغاء فتبدأ المقابلة مع الإخباري وتنتهي بدون توقف ولا انقطاع وكأنهما جالسان يتجاذبان أطراف الحديث في مجلس أنس عامر . وبينما نجد بعض الطلاب لديه الموهبة في إدارة دفة الحديث مع الإخباري وتوجيه المقابلة وجهة صحيحة ، نجد بعضهم الآخر يكاد يكون حضوره معدوماً فلا نسمع صوته ولا نحس بوجوده أثناء التسجيل . وقد يخرج الإخباري عن الخط المرسوم للمقابلة فلا يحاول أن يرده إليه أو أن يفتح معه باباً جديداً من أبواب الحوار .

وهناك حالات نادرة يتقاعس فيها الطالب عن أداء العمل الميداني بنفسه ، ويوكل المهمة إلى أحد الأقرباء أو الأصدقاء لمقابلة الإخباري بدلاً منه ، أو يطلب من الإخباري إن كان وثيق الصلة به أن يسجل الشريط بدون حضوره ثم يبعث به إليه . ووجه الخطأ هنا أن الطالب يحرم نفسه من هذه التجربة القيمة التي تفيده في اكتساب الخبرة والمراس في مقابلة الإخباريين ، بالإضافة إلى أن الإخباري أو المندوب الذي يجري معه المقابلة ليس لديه خبرة في العمل الميداني وإجراء المقابلات وفقاً للأسس العلمية الصحيحة . ويجدر التنبه هنا إلى أن الغرض الأساسي من دفع الطلاب إلى إجراء المقابلات مع حملة المأثور الشعبي ليس مجرد الحصول على مواد شعبية لإيداعها في الأرشيف الصوتي الذي أشرنا إليه ، ولكن الغرض الأساسي هو تدريبهم تدريباً عملياً على الجمع الميداني وتشجيعهم على أن يصبحوا باحثين مهرة في مجال الدراسات

الشعبية ، وأملنا أن يحتفظوا بحماسهم وأن يستمروا في الجمع مدى الحياة .

وقد تعمدت في هذا العرض السريع التركيز على السلبيات التي واجهتها في العمل الطلابي ؛ ومن المؤكد أنني لا أهدف من وراء ذلك إلى التقليل من شأنه أو التشكيك في قيمته ولكنني أردت أن أنبه إلى بعض الممارسات الخاطئة لعلنا نتلافاها في المستقبل ونتمكن من الرقي بمستوى العمل الطلابي إلى أعلى الدرجات .